# العاقر

﴿ بقلم مخائيل نعيمه ﴾

*

« يكلل عبدالله جميل عَلَى عبدة الله جميله باسم الاب والابن والروح القدس · »

لما فاه الخوري بولس بهذه الكلمات مساء العاشر من ايار سنة ١٩٠٠ في قاعة فسيحة ،غنية بالرياش والزخرفة ، من دارابي جميل الكرباج ، هبطت عَلَى مئات من المدعوين الى العرس سكينة خرساء تجللها هيبة سماوية ·الاطفال والاحداث والعذارى والفتيان والكهول والشيوخ — كلهم حبسوا انفاسهم كأنهم يصغون الى رفرفة اجنحة خفية · الخوري بولس نفسه ، الذي ربط في حياته بوثاق الزيجة نحو الالف من ابناء قطيعه المحفوظ من الرب ، لفظ هذه الكلمات تلك الليلة بصوت غير صوته العادي حتى خيل لسامعيه ان الروح القدس كان يتكلم بلسانه · ربما كان ذاك لان الخوري بولس في كل حياته الطويلة التي قضاها خادماً للرب ادرك لاول مرة اهمية كلماته ، وتنورت روحه فرأى الزيجة كسر مقدس المي لا كطقس كنائسي فقط · او ربما كان السبب ان الخوري ، من يوم اقتبل شرف الكهنوت الى تلك الدقيقة ، لم يرفع يده ليبارك رباط عروسين كجميل الكرباج وجميلة

البشتاوي — لكن الحضور شعروا فجأة انهم في حضرة قوة علوية ، وتحولت القاعة في اعينهم ، مع كل ما فيها من انوار الشموع الملتوية ، الراقصة المنتصبة نحو العلاء ، الى هيكل طـاهر يتم فيه سر مقدس عميق . لذلك توشحوا بالسكوت والورع .

لا شك ان منظر العروسين كان مما زاد المشهد هيبة و جلالاً . فجميل الكرباج — وحيد ابيه وامه — كان اجمل شاب في كل البلدة وجوارها بل في كل لبنان ، اذا صدقنا ما قاله عنه الكثيرون ان « الله خلقه وشال ايده » . طويل القامة ، ممتلىء الجسم ، ابيض البشرة ، مستدير الوجه يسقي بياضه دم الشباب . في عينيه تضحك الحياة ، وفي شاربيه الصغيرين تتجلى قوة الاعتماد عَلَى النفس والثقة بالذات والفخر بما فعله وسيفعله بعد في هذا العالم . هجر والديه لما كان له من العمر ١٨ سنة . جاء اميركا فافلح في التجـارة وجمع من الثروة نحو الف ليرة في مدة قصيرة . ووجد في اثناء ذلك وقتاً ليصرفه عَلَى تثقيف ذاته فدرس وتعلم وحصل ما لا يحصله الوف من المهاجرين اللبنانيين والسوريين في هذه البلاد في عشرات من السنين . ثم لبى دعوة والديه فعاد الى لبنان وبنى داراً فخمة — احسن دار في كل البلدة — وفتح تجارة جديدة . كل ذلك وهو لم يتخطَّ الخامسة والعشرين من سنيه . اهل البلدة يتحدثون باجتهاده وعقله ولينه ودماثة اخلاقه . لا يشتم ، لا يلعن ، لا يسب الدين ، لا يسكر ، لا يلعب بالقمار ولا يدخن . يدعو كل شيخ في البلدة « جدي » وكل عجوز « ستي » وكل كهل « عمي » او « خالي »

وكل كهلة « عمتي او « خالتي » وكل شاب « خيي » وكل فتاة « اختي » . يحيي الطفل ويحيي الشيخ قبل ان يبادراه بالتحية ويرفع قبعته عن رأسه باعتبار واجلال لما يحيي النساء . قلما يدعوه احد في البلدة الا « جميل افندي » وبالاخص بعد انتخابه لمجلس البلدية او « القومسيون » . كم من الامهات اشتهين وطلبن وصلين في قلوبهن ، والبعض علناً ، ان يكون جميل نصيب بناتهن — ولكن دون جدوى ! كم من العذارى كن يسرقن لحاظه ويتتبعن خطاه وينصبن له اشراك الحب ويستعملن ضده كل دهاء النساء — ولم يفلحن ! اما هو فلم يفتح خزائن قلبه سوى لجميلة البشتاوي . الفتيات اللواتي كن يعتقدن انهن اجمل من جميلة البشتاوي بدرجات ، اخذن ينشرن الاخبار ان جميلة سحرت ابن الكرباج بمالها لا بجمالها وان جميل الكرباج ، لو كان عَلَى شيء من عزة النفس وتقدير الجمال ، لما تعلق بجميلة البشتاوي عَلَى الاطلاق .

مع ذلك هؤلاء الامهات والعذارى انفسهن كن ينظرن تلك الليلة الى العروسين ويعترفن في اعماق قلوبهن ان جميلاً قد خُلق لجميلة وجميلة لجميل . كن ينظرن الى نضارة الحياة والجمال المتدفقة من وجه جميلة ، ومن كل خيط من ثيابها البيضاء كما يتدفق العطر بين اوراق الوردة التي فتحت قلبها لنور الشمس ، ينظرن الى قامة جميلة وقد كادت ان تعادل قامة عريسها طولاً ولو زادتها رقة ولياناً ، ينظرن الى عينيها وانوار السعادة والحب والشباب قد انقدت فيهما ، الى تورد وجنتيها ، الى بياض عنقها ، الى حمرة

شفتيها الرقيقتين وقد اطبقتا بلطف كان بينهما اول قبلة من اول حبيبين تخافان ان تفلت من بينهما او كأنهما تستعدان ان تطبعا قبلة عَلَى وجه الحياة ، ينظرن الى جميل بجانبها والى الخوري بولس ، ولجبته البيضاء تغطي صدره ، وضفيرة شعره الشائب مسدولة عَلَى ظهره وسطه ، فيرين في العروسين تمثال الشباب نفسه وقد انتصب امام شبح الشيخوخة وتتنهد كل منهن مشتهية لو كانت واقفة في تلك الدقيقة بجانب جميل الكرباج

اما الشبان فانتصبوا كل مدة الاكليل وآذانهم لا تسمع اصوات الكاهن والمرتلين ، واعينهم لا ترى من بين كل الوجوه في تلك القاعة الواسعة سوى وجه العروس . وقفوا كأنهم في غيبوبة . ويحكى ان احدهم — بطرس جربوع — الذي حاول مرة بعد مرة ان يحصل عَلَى يد جميلة ، حرق طرف شاربه الايمن بالشمعة تلك الليلة ولم ينتبه حتى صرخت ام طنوس التي كانت واقفة بجانبه « ويحك يا بطرس ! حرقت شواربك ! » كم من الشبان الحاضرين حسدوا جميل الكرباج في اعماق قلوبهم وتمنوا لو كانوا في ثيابه ! والبعض ينقلون عن لسان الخوري بولس ان هذا الشيخ الجليل المحترم اعترف تلك الليلة انه في خمسين سنة قضاها في خدمة الكنيسة لم يشته مرة واحدة ان يبدل حلله الكهنوتية بكل ثروة العالم ، لكنه لما امر العروسين — جميل الكرباج وجميلة البشتاوي — ان يتبادلا قبلة المحبة تمنى في تلك الدقيقة لو كان في ثياب جميل الكرباج ولو كان جميل الكرباج في ثيابه

جميلة البشتاوي ، عدا جمالها الساحر ، كانت تحوي عَلَى صفات قلما

اجتمعت في فتاة في كل ذاك الجوار او سواه · اذا دار عنها الحديث في اي مجلس كان — سواء كان مجلس نساء او رجال ، او مجلس رجال ونساء معاً — فاول ما تتناوله الالسن حسنها الرائع ، ثم ينتقل المتحدثون الى طباعها وعلمها وثروتها الخ · يقول واحد انها ملاك — « الارض ما بتحس فيها » — فيزيد الاخر انها « عالمة » ويعني انها انهت مدرسة داخلية للبنات « واخذت الشهادة » · ويتابع الثالث انها « وحيدة وان اباها قد ترك لها بعد وفاته ارزاقاً واسعة و « صندوقاً » من المال · ويضيف الرابع انها سترث كل ارزاق عمها لانها وريثته الوحيدة الخ الخ · لذاك فلا عجب اذا ظل زفافها لجميل الكرباج موضوع جلسات الرجال والنساء في البلدة مدة اسبوع عَلَى الاقل · الكل كانوا يتعجبون لهذا الاتفاق الغريب · جميل الكرباج « وحداني » وهي « وحدانية » · هو غني وهي غنية · هو « عالم » وهي « عالمة » · هو في شرخ شبابه وهي لا تزال في الثامنة عشرة من عمرها · هو من عائلة معروفة وهي من نسل شريف · هو « عاقل » وهي « عاقلة » · هو جميل الخلق وهي جميلة الخلق · والاغرب من ذاك كله اسمه جميل واسمها جميلة ! واتفاق الاسمين عَلَى الاخص جعل الخوري بولس انيتنبأ لهما بمستقبل محفوف بالامن والراحة والبنين مستنداً في نبوءته عَلَى انه في حياته الكهنوتية كلها لم يبارك قبل تلك الليلة سوى اكليلين اتفق فيهما اسم العريس مع اسم العروس · الاول كان اكليل « عزيز وعزيزة » والثاني « شاهين وشاهينة » · وفي الحالتين انعم الله عَلَى العروسين بذرية كبيرة · لذاك سينعم الله بالبنين

❀ سكرة الحب ❀

م٢٩٦

عَلَى جميل وجميلة · ابوجميل وام جميل وام جميلة قبلوا يد الخوري بولس بكل ورع لما فاه بنبوءته واجابوه بصوت واحد تقريباً · « بدعاك يا بونا »

« أبونا » رجع تلك الليلة الى بيته متهللاً كأن شبابه قد عاد اليه لانه كان يحمل في جيبه عشر ليرات انكليزية · اما بقية المدعوين فتفرقوا بعد نصف الليل الى بيوتهم وهم يتبادلون الافكار عما رأوه وسمعوه وعما لاقوه من حفاوة اهل العريس وسخائهم وجودة خمرتهم وطيب « عيشهم » وكلهم يتنبأ عن مستقبل العروسين

. . . . .

مضت الاشهر الاولى من حياة جميلة الزوجية كيوم من ايام الربيع: لم ترَ سماوءه غيمة عَلَى الاطلاق وهواوءه واشجاره وازهاره واعشابه وانهاره ودباباته وحشراته — كلها تملى بخمرة الحياة ولذة التجدد كأنها في مهرجان عظيم · وجميلة كانت في بيتها الجديد — بين « عمها » بوجميل و « امرأة عمها » ام جميل وشريك حياتها جميل — محور حياتهم اليومية · حولها تدور افكارهم وبها تناط آمالهم · لاجلها يتعبون ولاجلها يعيشون · اذا ضحكت ضحكوا وان عبست عبسوا كأنها ينبوع حياتهم ومصدر كل افراحهم واتراحهم · يعبدونها كأنه ثانٍ ولا يطلبون في هذا العالم كله سوى رضاها · لما انتهت مدة التهانيء بعد العرس اقترحت ام جميل عَلَى ابنها ان يأخذ زوجته الى بيروت او الشام « تغييراً للهواء » فصادف هذا الاقتراح استحسان الجميع وزار الزوجان الشام وزحلة وبيروت ولما رجعا

هرعت ام جميل الى جميلة تعانقها وتقبلها وتضمها الى صدرها صارخة بلهفة. « حبيبتي. طوّلتي الغيبة! حبيبتي. أحترق قلبي بلاكِ!» ثم القت نظرة عَلَى يدي كنتها فرأت بعض خواتم جديدة عَلَى اصابعها وسوارات ذهبية عَلَى معصميها وساعة جديدة معلقة بسلسلة ثمينة عَلَى صدرها فكادت تطير فرحاً. « اي. مباركين. مباركين يا بنتي. تعيشي وتقطعي ان شاء الله بجاه جوزك ». ولما ضحكت جميلة اذ رأت حماتها فرحت بتلك « الحرائيق» — كما دعت مجوهراتها — اكثر منها امتقع لون ام جميل بلحظة واجابت بصوت فيه غصة اسف. « هو حرائيق؟ بنت سرسق بزمانها ما شافت مثلهن. ودياتك انتِ شويلبق لهن غير الذهب والالماز؟ »

اما جميل فكان حبه لزوجه في خلال الاشهر الاولى يتجدد كل يوم. كل يوم كان عنده عرساً. لما يذهب صباحاً الى مخزنه يتزود قبلةً منها ولما يعود عند المساء يجدها بانتظاره في الباب فيأخذها بين ذراعيه ويضمها الى صدره منحنياً الى وجهها ثم يسألها مقبلاً شفتيها الورديتين. « كيف حال قرقورتي اليوم؟ » فتجيبه والسعادة تضيء في عينيها منعكسة في كل عضلة من عضلات وجهها « كيف حال قرقوري اليوم »

« القرقورة » و « القرقور » اصبحا في قاموس حياتهما اليومية اسمي علم حلاً محل « جميلة » و « جميل ». جميلة احبت اسمها الجديد حتى كادت تنسى اسمها الاصلي. وجميل كذلك. وكلاهما كانا يكرهان الزائرين ليس لسبب مادي او تقاعداً عن القيام بواجبات الضيافة السورية

بل لان الزائرين كانوا يأخذون قسماً من وقتهما الثمين الذي كانا يرغبان ان يصرفاه معاً. وبالاخص لانهما في حضرة الغرباء كانا يضطران ان يرجعا الى «جميل» و «جميلة» بدل «القرقور» و «القرقورة». جميلة كانت تكره الزائرين لسبب آخر لم تطلع زوجها عليه. وذلك لان كل زائر كان يعد من واجبات اللياقة واللطف ان يقول لها دائماً كلما قدمت له سيكارة او فنجاناً من القهوة او نرجيلة او نحو ذلك «ان شاء الله عاقبال فرحة عريس». هذه الطلبات والتمنيات الدائمة كانت كقطرات سم في كأس سعادتها الطافحة. حب جميل وقرب جميل وقبلات جميل—هذه هي سعادتها و كمال حياتها. فلماذا كل هذه التمنيات — «عاقبال فرحة عريس» كأن حياتها دون «عريس» ليست كاملة؟

مرة — لما انصرف الضيوف واختلت مع جميل في مخدعها — تقدمت اليه بلطف واخذت طرف شاربه الايسر بيدها اليمنى لتقبله ثم قالت. «اسمع يا قرقور! ألا تتضجر من كثرة تمنيات هؤلاء الناس البلداء «عاقبال فرحة عريس» يرمونك بها اينما صادفوك وفي كل الاحوال ومهما كان موضوع الحديث؟ قد بدأت انفر منها حتى صرت اكره معاشرة الناس لاجلها.» طرحت هذا السؤال عَلَى زوجها وهي متأكدة انه سيجيبها انه يكره تلك التمنيات مثلها او اكثر. وانه يحتملها لان لا سلطة له فوق الغير ليلجم ألسنتهم. وشدّ ما كان عجبها لما سمعت جوابه

— هل نشتم الناس «يا قرقورة» اذا كانوا يشتهون لنا السعادة؟

— هذا الجواب اكد لجميلة ان متابعة الحديث في هذا الباب ربما كشفت لها الستر عن اول تناقض في الافكار والاعتقادات بينها وبين جميل . وهي كانت تثق بكل وجودها ، حتى تلك الدقيقة ، ان حياتها مع جميل ستكون كما كانت حتى تلك الليلة ، ربيعاً دائماً لا يعكرها اقل اختلاف في الميول والاذواق والاراء والاعتقادات . لذلك كانت تخاف ان تجد ولو نقطة صغيرة جزئية لا يتفق فيها ذوقها مع ذوق زوجها . لما هم جميل ان يشتري لها حلاها في بيروت تمنعت كل التمنع لانها — كما قالت حينئذٍ — لم تشأ ان تكون « حمارة مشنشلة بالذهب » ولانها تعد التحلي بالذهب والماس عاراً عَلَى امرأة لها في جمالها واطباعها وحب زوجها ما يكفيها حلية مدى حياتها . لكن جميلاً أصرَّ عَلَى عزمه واسكتها بقوله ان حجتها هي « حجة الفقراء » وان الافضل ان « تلبس لكل حالة لبوسها » وان « مقامها في الهيئة الاجتماعية » يحتم عليها ان تلبس حلى ذهبية وماسية الخ . فاذعنت لارادته ، لا لانها اقتنعت بقوة برهانه ، بل لانها قررت في عقلها ان سعادة الزوجين تطلب اتفاقاً تاماً في الاذواق ولاجل تلك السعادة اخضعت ذوقها لذوق زوجها . ولذلك خشيت الان من متابعة الحديث خوفاً من ان تصل الى حيث لا تشتهي . لكن طبيعتها النسائية ، تلك الطبيعة نفسها التي حملت جدتها حواء عَلَى الاكل من الثمرة المحرمة ، دفعتها الان الى متابعة الحديث الذي فتحته فجأة وما كانت تظنه عَلَى شيء من الاهمية

— أولسنا سعيدين بلا « عريس » ؟ وهل سعادتنا لا تكمل بغير

اولاد ؟ — طرف شارب زوجها بقي بين اصابعها تلعب به وعيناها قد احدقتا بعينيه كأنها تقرأ فيهما ما احدث سوءالها في قلبه ·

— لماذا هذه السوءالات يا قرقورة ؟ ··· ولكن لو رزقنا الله « عريساً » — كما يشتهي لنا هوءلاء القوم الذين تتضجرين منهم — أفلا تكمل سعادتنا ويتضاعف حبنا ؟ — لم تسمع جميلة هذا الجواب حتى ارتخت اصابع يدها اليمنى وسقطت من شارب زوجها وحولت نظرها الى الارض · اذن سعادة جميل بحبها ليست كاملة · اذن حبه لها لم يبلغ حده بعد ولا يزال قابلاً للزيادة والتضاعف · ولماذا قد امتد حبها له واتسع حتى غمر كل حياتها كموجة جارفة فاصبح جميل في حياتها الكل بالكل ؟ لماذا لا تطلب زيادة سعادة ولا تسأل من ربها الا ان يُبقي لها ما تملكه الان ؟ هي لا تبغض البنين — كلا · بل تشتهي من كل قلبها ان تصبح اماً · لكن هذه الشهوة سواء تحققت ام لم تتحقق — لا تزيد ولا تقلل من سعادتها ما دام حب جميل يدفئها ويدور مع دم قلبها الى كل اعضاء جسمها · فلماذا يتكلم جميل عن « كمال السعادة » و « تضاعف الحب » ؟ — دارت هذه الافكار في رأس جميلة باقل من طرفة عين فوجدت نفسها مدفوعة الى ان تسبر غور زوجها الى النهاية · فعادت ورفعت عينيها الى وجهه محاولة ان تعيد اليهما كل اللطف والحنو والاستسلام التي كانت فيهما قبلاً وقالت آخذة بيد زوجها ·

— اعذرني يا قرقور عَلَى هذه الاسئلة الباردة · ولكن ··· ولكن لنفرض ··

— قالت ذلك ووقفت كأنها خافت ان تفوه ببقية الكلمات التي كانت تدور على طرف لسانها ·

— لنفرض ماذا ؟

— لنفرض ··· لنفرض ان الله لم يرزقنا ··· ان الله بخل علينا « بعريس » او « بعروس » ··· فهل ··· فهل يضعف حبك نحوي حينئذٍ وهل تعد سعادتك ناقصة ؟

— لله ما اكثر اسئلتك الليلة ! قلت لك انه اذا من الله علينا « بعريس » تكمل سعادتنا ويتضاعف حبنا · واذا ··· واذا لم يشأ الله ان يهبنا ذرية ··· ( هنا بلع جميل ريقه كأن قد اصابته غصة ) واذا لم يمن الله علينا بنسل ف ···· فماذا نقدر ان نفعل ؟ لا يبقى لنا الا ان نخضع لارادته · مع ذلك نقدعيتنا من هذا الحديث لانه بلا جدوى وتعالي لننام · — اخذ جميل بيد زوجته واماله الى صدره ولاول مرة بعد اكليلهما قبّلها ولم يشعر بحرارة تتسرب من جسمها الى جسمه ولا احس بدقات قلبها على صدره وبرودة انفاسها على وجهه ·

ام جميل (وابوجميل احياناً ) لم يبق لها غاية في الدنيا سوى الملاحظة والسهر على راحة كنتها · وذلك ، في عرفها ، كان ينحصر في ان لا تدع جميلة تقوم بشيء من اشغال البيت البتة · لذلك لما تغيبت ذات يوم عن البيت نحو ساعة او ساعتين ورجعت فوجدت كنتها في ساحة الدار والمكنسة في يدها كادت تغيب عن صوابها · « يي · يي · ريتني ما عيش ان شا الله !

ريتني تحت البلي ! انتِ من خرجك تكتسي ؟ انتِ ديّاتك يليق لهن الا الذهب والاطالس والحرير ؟ ريتهن يقبروني ان شا الله · هاتِ · هاتِ · هاتِ · وروحي تطلعي لك شي كتاب قريه ! » عبثاً حاولت جميلة ان تبرهن لحماتها ان لا عيب في شغل البيت · وانها لا تتعب من التكثيس · وانها قد ضجرت من الجلوس والقراءة وتطلب حركة جسدية · تلك البراهين قد تقنع ابا جميل ، لكن ام جميل قد شربت من ينبوع فلسفة غير تلك الفلسفة · وفلسفتها ان « بنات الاكابر » لا يجب ان يعملن عملاً عَلَى الاطلاق سوى الاكل والشرب والتأنق في اللباس · والا · شو بيقولو عنهن العالم؟»

لما رجع جميل تلك الليلة واستقبلته جميلة حسب عادتها هرولت نحوه امه واخذت تشكو له بصوت ربعه مزاح وثلاثة ارباعه جد ما رأته من « القرقرة » في ذاك النهار من محاولتها ان تنظف البيت · جميل وافق امه في كل ما قالته ان الكناسة ومسح الغبار وغسل الثياب والصحون وما شابه ليس « من خرج بنات الاوادم » واخذ عهداً للحال عَلَى جميلة — قسراً عن ارادتها — ان لا تعود لمثل تلك الاشغال · وفي اليوم الثاني ذهب واستأجر « صانعة » اجابة لالحاح امه وطبقاً لرأيه الخصوصي · ولكي يكون لجميلة ما تقضي به ساعات فراغها الطويلة كان يأتيها من مدة الى مدة برواية او مجلة او جريدة · هكذا جاءها مرة برواية « البوءساء » لفكتور هيكو واخرى برواية « البعث» لتولستوي وغيرها « بنتان غسان » و « العباسة اخت الرشيد » و « غادة كربلاء » وسواها لجرجي زيدان وغير ذلك من

الروايات والكتب . جميلة كانت تطالع كل رواية يأتيها بها زوجها لكنها لم تكتفِ بالمطالعة بل كانت تشعر ان قوى الشباب فيها تطلب شغلاً جسدياً مع الشغل العقلي فتأسف ان ترى ذاتها محرومة من تلك اللذة ارضاء لخاطر زوجها وامه وابيه .

لكن هذا الفراغ في حياتها لم يكن ليقلق راحتها العقلية والنفسانية لولا انه اخذ يتسع مع الايام حتى لم تعد قادرة ان لا تراه ، لا سيما لما بدأت تشعر ببرودة من زوجها في علاقاته معها .

مرَّ عام وتلاه الثاني بعد زواجهما ، وكل يوم جديد كان يوءكد لجميلة ان هاوية فغرت فاها بينها وبين جميل . هو لم يزل يناديها « قرقورة » وهي لا تزال تناديه « قرقور » وتستقبله كل مساء في الباب او عند اسفل الدرج خارجاً . لكن ذاك الحنو في صوته وتلك اللهفة في عينيه تبخرا كدموع الندى عن وجنات الاهار بعد طلوع الشمس . لم يبقَ من اثر لتلك الابتسامة اللطيفة — ابتسامة العاشق — عَلَى وجهه الجميل . ووجهه لم يعد كالسابق مرآة مصقولة تشف عن كل حركات روحه وقلبه بل اصبح الان وجه بحر رائق تمثل الحياة تحته مشاهد خفية لا تراها العين ولا تسمعها الاذن . ذاك النور الالهي في عينيه الذي كان يملأ قلبها بألذ الحان السعادة والحب قد انطفأ الان وحلَّ محله فكر اسود عميق تهب منه نسمات باردة عَلَى روح جميلة التي كانت لا تزال تعشق بكل قواها . هذا الانقلاب الغريب لم يأتِ فجأة بل بالتدريج . جميلة بدأت تلاحظه

بعد مرور السنة الاولى لاقترانهما · والان تراه يزداد يوماً عن يوم · قلبها يتوجع وهي لا تظهر الوجع عَلَى وجهها خوفاً من ان تتبخر من روحها آخر قطرة من السعادة التي لا تزال تطلبها نفسها وكل وجدانها · يخيل لها احياناً ان ما طرأ عَلَى حياتهما ليس سوى غمامة مرت بسماء سعادتهما وستنقشع عن قريب · لا سيما لما تسأل نفسها عن اسباب التغير الذي حدث في علاقات زوجها معها فلا تجدها · هي لا تزال تحبه كالسابق ان لم يكن اكثر شفتاها لا تزالان تشتاقان الى شفتيه وصدرها الى صدره هي لا تزال تنتظر رجوعه كل مساء بفروغ صبر وتقف في الباب وعيناها محدقتان في جهة واحدة — الجهة التي سيأتي منها · وبالاختصار فجميل لا يزال « قرقورها » فماذا طرأ عَلَى جميل ؟

بقي هذا السوءال يعذب جميلة نهاراً بعد نهار وليلاً بعد ليل الى ان سمعت مرة بالصدفة هذه المحاورة الوجيزة بين حماتها وجميل

— يا ابني · لحد وَين ناطر ؟ اطلّع دبر مرتك !

— ايش بدي دبر فيها ؟ شو انا بخلق ولاد ؟

— يي · هيك بيقولوا ؟ خذها عابيروت · خذها عالشام · يما خليني انا دبرها · هيك ؟ بينقطع نسلنا ونحنا قاعدين ؟

— بالله يا امي اتركيني بحالي · هلي بقلبي بيكفيني · عملي اللي بدك ياه ! ···

هذا الحديث القصير بين ام جميل وجميل فسّر لجميلة كل ما كانت

تتوق نفسها المتألمة الى معرفته من زمان · لكن معرفتها السر لم تخفف من آلامها بل زادت قلبها انقباضاً ونفسها اوجاعاً · وما العمل ؟ هي تحب جميلاً ولا تتأخر لحظة ان تموت لاجل جميل ، وليس في العالم ما يشق عليها ان تضحيه لاجل ارجاع حب جميل اليها · لكن جميلاً يطلب ثمن حبه ما ليس في وسعها ولا في وسع العالم كله تقديمه · جميل يطلب منها اولاداً — وما ذنبها اذا كانت عاقراً ؟ هي لم تعد تبالي بالالام النفسانية التي يسببها ادراكها ان ما كانت تخشاه قد اصبح الان حقيقة لا تدحض — وذاك ان سعادة جميل معها لم تكن تامة بدون « عريس» وان حب جميل لها كان حباً جزئياً لا كاملاً · كل افكارها تحولت الى نقطة واحدة وهي — هل من سبيل الى تجديد نار الحب في قلب جميل ؟ — السبيل الوحيد ولادة البنين · وحماتها نوهت عن بيروت والشام · فماذا ترى كانت تعني بذلك ؟ هل في بيروت او الشام اطباء يقدرون ان يجعلوا العاقر تحمل وتلد ؟ حماتها وعدت ان تأخذ هذا الامر عَلَى عاتقها · وهي امرأة محنكة مجربة ، أفليس الافضل ان تعمل بكل ما تقوله حماتها ؟ لكنها لم تسمع الى احد في هذا العالم — فلماذا اساء اليها العالم ؟ حبها لجميل لم تزده الايام الا ناراً فلماذا خمدت نار حب جميل نحوها ؟ هي راضية به بدون اولاد · فلماذا لا يرضى هو كذلك بها ؟ أليس هو المسيء اليها — فلماذا تسعى لتكفر عن اساءته ؟ أليس الافضل ان تجازيه بالمثل وتقابله عَلَى البرودة بالبرودة ؟ أليس الافضل ان تنتهر قلبها ليسكن وتطفىء

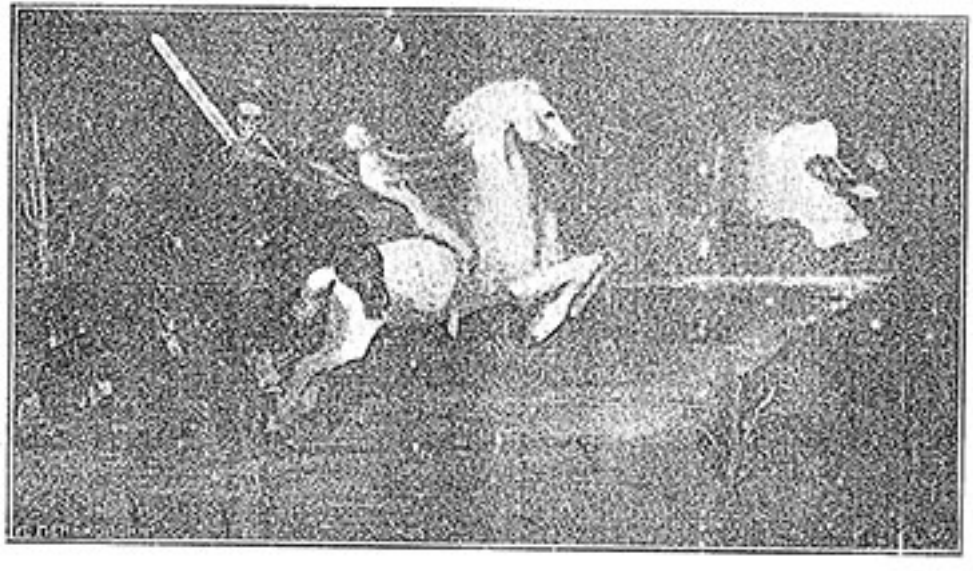

* الموت والحب *

للمصور بكوفسكي

بالدموع لواعج حبها وآلامها ؟ — لكن — ربما ..! ربما كان في وعد حماتها بعض الامل . فلماذا لا تتبع بارقة ذاك الامل ؟ — بقيت جميلة مدة تتردد بين الشك والعزم . دموعها تهم بالانهمار فتحبسها . وقلبها يكاد ينفجر في صدرها كقنبلة رشاشة — فتقول له « عَلَى مهلك يا قلب ... »

ام جميل اصرّت عَلَى رأيها هذه المرة وفازت . جميل لم يعارضها وتمنعات جميلة لم تكن لتقف في طريقها . وهكذا أمرت كنتها يوماً من الايام ان تعد كل لوازم السفر وفي الغد « نزلت » معها الى بيروت بعد ان اعلنت للجيران انها ذاهبة « لتشمم كنتها الهوا » لان كنتها « يا ولدي محصورة » . وبعد غيبة اسبوع عاد الاثنان من سياحتهما وعادت جميلة تراقب موت حبها التدريجي مشعرة انها تموت معه موتاً بطيئاً — موتاً روحياً . بيروت لم تخفف من آلامها الجسدية والنفسانية . ومعاملة جميل لها كانت تزداد خشونة لا سيما بعد ان مرّ عام عَلَى زيارتها لبيروت . اذا كان جميل قبل تلك الزيارة يقبلها ولو قبلات ناشفة ويدعوها « قرقورتي » ولو نادراً فالان لم يعد يقبلها عَلَى الاطلاق وعاد يدعوها « جميلة » وقلما يناديها حتى باسمها . تعلم فجأة تدخين النرجيلة فصار لما يعود الى البيت يجلس كل مسائه مع نرجيلته بدلاً من « قرقورته » . لا يحدث احداً ولا يجسر احد ان يحدثه الا اذا جاء ضيوف فيقابلهم بلطفه العادي كأن لم يطرأ عليه تغيير البتة . وعند الساعة التاسعة تقريباً يذهب الى غرفة منامه ويقفل الباب وراءه

جميلة اخذت تذوب كالشمعة ولم يكن لها أحد في العالم كله تكشف امامه روحها سوى امها . ولكن — ماذا تفهم امها ؟ اذا حدثتها عن المأساة التي كانت تمثلها الايام في قلبها تتنهد وتبكي ولا تفهم ماذا تقوله ابنتها : امها ، كأم جميل ، تنظر الى عقر ابنتها كألى قصاص صارم من السماء ، كألى فادحة عظيمة ، كألى عيب كبير لا يمحى بين الناس . تنظر الى قرينات جميلة فتراهن يغذين باثديتهن صبياناً وبنات فتخنقها الغصة لما تفكر ان ابنتها التي كانت « زينة » بنات البلدة ، ابنتها التي تحدث الغريب والقريب بجمالها وآدابها ، ابنتها التي تقاطرت لطلب يدها الشبان من كل جهات لبنان — تمشي الان ولا لبن في ثدييها ولا طفل على ذراعيها ... لذلك بدلاً من ان تجد جميلة تعزية عند امها ، كانت تضطر ان تعزيها

ام جميل لم تكتف بسياحتها الى بيروت بل اجبرت كنتها ، بعد مرور عام ، ان ترافقها الى الشام واعلنت هذه المرة كذلك لاهل القرية انها ذاهبة « لتشمم كنتها الهوا » لان كنتها « يا ولدي محصورة » . لكن اطباء الشام واطباء زحلة لم يفعلوا ما قصر عن فعله اطباء بيروت . حينئذٍ لعنت ام جميل في قلبها الطب والاطباء وعولت ان تستعين « بالمغاربة » . فصارت لا تسمع عن « مغربي » زار البلدة الا دعته الى بيتها وشرحت له حكاية كنتها ، حتى تحول بيت الكرباج الى نزل يومه كل من رفع صوته في تلك البلدة ونادى . « حكيم . طبيب . دوا للحبة . دوا للعين ! » ولم يطل ان تحققت ام جميل ان حذاقة « المغاربة » كذلك لم تجدها نفعاً . فما العمل ؟ —

بقي باب لم تطرقه ام جميل بعد وقد ... آخر وسيلة تلجأ اليها اذا ضاقت بها كل الوسائل . ذاك – زيارة ... ديوره – عليهم السلام . زارت مع كنتها دير مارجرجس الحميرا ... بعد سنة زارت مارمطانيوس قزحيا . ثم مار تقلا الخ وجميلة في يدها ... خرساء تديرها كيفما شاءت . في بدء الامر كانت جميلة تتمنع عن هذه الزيارات لكنها تحققت بالامتحان ان لا نفع من تمنعها ولذلك استسلمت لارادة حماتها وقد فقدت ارادتها تماماً مع فقد حب زوجها . الحياة اصبحت ... ثقيلاً عليها لم تكن تجد واسطة للتخلص منه . مضى عَلَى زواجها نحو عشرة اعوام فادركت ان السعادة التي سكرت بها في الاشهر الاولى قد ذهبت ولا امل برجوعها . جميل يكاد لا يكلمها عَلَى الاطلاق – حتى ولا ينظر اليها . يقضي اكثر لياليه في السوق ويرجع بين المرة والاخرى احمر العينين مع زرقة تحتهما . تتصاعد من فمه روائح العرق والنبيذ والجعة . اسنانه اكتست بغطاء اصفر كثيف . لون وجهه انقلب من الوردي الى الرمادي . طرفا شاربيه هبطا الى اسفل . لحيته لا ترى الموسى احياناً في اسبوع . لما يرجع الى البيت يتحول كله الى مقبرة لا حركة ولا حياة فيها . لا يجسر احد ان ينبس ببنت شفة . واذا حدث وقال او فعل احد ما ليس عَلَى خاطره – سواء كان ذاك اباه او امه – يبدأ بشتائم الدين وتكسير كل ما تصل اليه يده من فرش وآنية . ومرة ضرب زوجته لانها رفضت ان تذهب الى الكنيسة وتلبس كل مجوهراتها

جميلة كانت تراقب كل ذلك وقلبها يتفطر . وجميل وام جميل

ينظران اليها كسبب تعاسة وحيدهما لذاك يبغضانها. وكم سمعتهما يتحدثان « ولدي — تقول ام جميل — ها الصبي ذاب من قهره. لا بقى الله يطعمها ولا بقى عزرائيل يقدفها عنه. لو ماتت كان يتجوز له بنت حلال بتجيب له ولد يعزي آخرتنا وآخرته ... » . ذاك الحنو الذي كانت تلاقيه جميلة من حماتها لم يبق له من اثر . اذا رأتها الان تكنس وتغسل وتطبخ لا تصيح كالسابق « بي بي . ريتك تقبري حماتك انشالله » . الخادمة التي كانت استأجرتها لخدمة جميلة عادت الى بيتها من زمان. جميلة تشتغل اليوم كثور في البيت وخارج البيت . واذا جلست لتستريح تسمع للحال صوت حماتها « رجعنا نقعد ؟ مش وقت قعود هلق! » . الكل يشاركون جميلاً في مصابه وبلواه وقلّ من في قلبه بعض الشفقة نحو جميلة . اذا خرجت من بيتها تخرج كل ام في البلدة تحمل رضيعاً حتى اذا اقتربت منها جميلة تخاطب طفلها هكذا « فوءاد ! — او بطرس او حنا — زقف لخالتك جميلة يا ابني زقف . بي. ريتهن يلحدوني ها الديات الحلوين بجاه رب السما » الخ . كل ذلك لتسمع جميلة ويدمي قلبها المجروح. وجميلة كانت تسمع ساكتة وتبكي ساكتة وتتمرمر نفسها من الحياة والعالم ساكتة . اذا مشت تشعر كانها تمشي بين اشلاء آمالها التي جندلتها الايام من حولها وان نامت تشعر بأنها نائمة عَلَى انقاض سعادتها المتهدمة . ماذا بقي لها في هذه الدنيا ولماذا تعيش ؟ ولكن هل ذوت كل آمالها عَلَى الاطلاق ؟ اذن لماذا لا تزال تقول « ربما » ؟ « ربما منّ الله عليّ ... » لو « منّ الله عليها » ترى هل

تعود اليها تلك السعادة المفقودة ؟

عبثاً حاولت جميلة ان تجيب عَلَى هذه الاسئلة لانها اصبحت غريبة عن نفسها . الظلمة التي اكتنفت روحها لم تبقِ لها منفذاً لدرس خفاياها واسرارها . لذلك تعذّر عليها ان تعطي حساباً لنفسها عن نفسها فوجدت الاستسلام للايام اسهل طريق تسلكه ولذلك لم تعارض ارادة حماتها لما اعلنت لها يوماً عن عزمها ان تذهب بها لزيارة صيدنايا — المجد لاسمها

من قال ان زمان العجائب قد مرّ فليذهب الى بلدة ع . من اعمال لبنان ويسأل عما جرى سنة ١٩١٠ ! امرأة بقيت عاقراً عشر سنوات . لم ينفعها علم الاطباء ولا ساعدتها عقاقير المغاربة . حتى مار مطانيوس قزحيا عجز عن « شفائها » . لكن صيدنايا — المجد لاسمها — سمعت صلاة ام جميل الكرباج الحارّة .

نعم . صيدنايا لم تخيب طلبات ام جميل . جميلة حملت في تلك السنة وما اسرع الانقلاب الذي حدث في البيت حالاً بل في كل البلدة ! جميل رجع يناديها « قرقورتي » مع ان جميلة لم تعد تحب سماع هذا الاسم الذي كان يمزق قلبها كخنجر حاد ولم تعد تنادي زوجها « قرقوري ». جميل صار يرجع الى البيت مساء وفي يديه وجيوبه جميع اصناف المأكولات والهدايا . الخادمة كذلك رجعت الى بيت الكرباج . وام جميل عادت تهتف كلما رأت كنتها تمسح النبار عن كرسي او تحرك الطبيخ في قدر . « بي . بي . تقبرلي حماتك ان شا الله انتِ دياتك بيلبق لمن الا لبس

الذهب والحرير ؟ » — ملاك السلام عاد الى بيت الكرباج · جميل ترك السكر واكتفى بالنرجيلة فقط · عادت الابتسامة الى وجهه ورجع نور السعادة الى عينيه · ام جميل تقبل تهاني اهل البلدة بقلب طافح بالفرح وتذكر كلاً منهم ان لا فضل لها في ما جرى قائلة ·

« صيدنايا — المجد لاسمها ! »

جميل ، من شدة فرحه ، لم يلاحظ الانقلاب العجيب الذي حدث في زوجته · لم يلاحظ ان تلك الابتسامة الملائكية التي كانت تتلألأ على وجهها الوردي فيما سبق قد غابت الان الى الابد تاركة مكانها علامة سؤال مبهم · لم يرَ ان تلك القوة الكهربائية التي كانت تتسرب من عينيها الضاحكتين الى اعماق قلبه فتملؤه غبطة سماوية قد اختفت الان ورآء تلك الاهداب الطويلة التي تظهر كل دقيقة كأنها تستعد للبكاء والندب · لم يشعر بنغمة جديدة في صوتها — نغمة حزن عميق لا اول ولا آخر له · لم يرَ اصفرار وجهها ولا تقطب حاجبيها الدائم الذي ينم عن أوجاعها النفسانية · واذا رأى بعض ذلك فكان يحسبه طبيعياً في حالة الحمل ·

اما جميلة فكانت كأنها انسحبت من العالم الخارجي الى داخل نفسها كما تنسحب البزاقة الى صدفتها · وهناك انفردت نفسها بنفسها لاول مرة في حياتها فاعتراها رعب لما أخذت تحلل ذاتها بذاتها وترفع الستار رويداً رويداً عن اشياء داخلية كانت تشعر بها ولا تعرف بوجودها · لاول مرة

في حياتها سألت نفسها · ما عسى ان يعني كل هذا —صباها وشبابها وزواجها وظمأ روحها الدائم وسعادة لم تكد تلمسها حتى تقمصت من بين يديها واختفت الى الابد ؟ وانين قلبها الذي لا يبطل ، كأنه حية تفرض اوصاله · وسياحاتها الى بيروت والشام وزحلة الخ وزيارة الاديرة والنذور للقديسين وتقديم الصلوات ··؟ ما عسى ان يعني كل ذلك ؟ اهذه هي الحياة ؟ وان كانت تلك هي الحياة فما غايتها منها ؟ أأن تحمل وتلد عريساً لترضي زوجها واهل زوجها ؟ هي الان حامل — فلماذا لا تقنع ؟ ولكن كيف حملت ؟ ··· تصل جميلة في افكارها الى هذا الحد ثم تعود الى حيث بدأت · كيفما انقلبت تشعر بأنها ماشية في دائرة مسحورة من الافكار التي ستتبعها كاشباح آمال ميتة · وكم حاولت ان تفلت من تلك الدائرة ولم تقدر ! كم حاولت ان تتخلص من نفسها وترجع لتنغمس برأسها في بحر الحياة الواسع — في حب زوجها وامها وملاطفة حماتها وحميها — لكن دون جدوى . قبلات زوجها اصبحت سماً يتفشى في كل جسدها وملاطفة حماتها — حراباً تقطع شرايين قلبها · ادركت انها قد اصبحت كورقة قطعتها الرياح من شجرة وحملتها الى محلات بعيدة غريبة ·ادركت انها غريبة في بيت زوجها وبيت امها وكل بلدتها — بل في العالم كله · وهذه الضربة الروحية كانت تضغط ضميرها كل دقيقة وكل ثانية حتى سئمت الحياة وسئمت العالم ·

كان العاشر من شهر ايار سنة ١٩١١ يوماً من تلك الايام الربيعية في

لبنان التي يعرفها من عاش في الاماكن المرتفعة من ذاك الجبل والتي لم يظهر الى الان قلم استطاع ان يفيها حقها من الوصف · الشمس كانت تتخطر عَلَى مهلها نحو المتوسط لما عاد جميل الكرباج من شغله الى البيت ولم يجد زوجته جالسة عَلَى الدرج حسب عادتها · سأل امه عنها فاجابت انها ذهبت لتتنزه من ساعة ولم ترجع ثم اضافت انها قد تكون زارت في طريقها بعض الجيران · جميل لم يكتف بهذا التفسير لعلمه ان زوجته في المدة الاخيرة كانت تتجنب الناس ومعاشرتهم كما تتجنب الافاعي والعقارب · لذلك دخل تواً الى مخدعها ليرى اذا كانت قد لبست ثوباً من ثياب الزيارة · فتأكد انها في ثيابها البيتية · لكنه لم يشاهد هذه المرة ما تعود ان يراه في غرفتها من الترتيب والاتقان · وبينما هو يسأل نفسه اين عسى ان تكون « قرقورته » وقع نظره عَلَى ورقة مطوية عَلَى صفحة الرخام امام المرآة · فاخذها واذا فيها · « تجدني تحت السنديانة · جميلة ·»

قرأ جميل تلك الكلمات وطار بسرعة البرق الى السنديانة · هو يعرف كل غصن من تلك الشجرة كما يعرف اصابع يديه العشرة · هي السنديانة عينها التي كان يجلس تحتها مع جميلة في الايام الماضية — ايام سكرتهما بالحب الاول وسعادة الحياة الزوجية · سنديانة دهرية واقفة عَلَى ظهر ربوة يجري عند قدميها نبع ماء نقي عذب · حولها كثير من الاشجار المختلفة الاعمار — لكنها هي اقدم شجرة في ذاك الجوار بل في كل البلدة وجوارها · وصل جميل اليهـا ووقف جامداً كمن أصيب بمس — لا يدري أيبكي

ام يضحك ٠

« قرقورة ٠٠! قرقورة ٠٠!»—امامه زوجته عَلَى الارض مضطجعة عَلَى جنبها الايمن وعليها ثوب العرس — ذلك الثوب عينه الذي وقفت فيه بجانبه من مضي احدى عشرة سنة امام الخوري بولس. عَلَى رأسها اكليل من الازهار ٠ شعرها العقيقي مسدول عَلَى كتفها الايسر ٠ وضفيرة منه تطوق عنقها ٠ رأسها ملقى عَلَى ذراعها الايمن ويدها اليسرى مطوية عَلَى صدرها بشكل نصف دائرة واصابعها تسند خدها الايمن

« جميلة ٠٠! جميلة ٠٠ ! » — جميلة لا تجيب ٠ انحنى زوجها فوقها ولا يزال يخالج قلبه امل ضعيف ربما كانت نائمة ٠ اخذ رأسها بين يديه وللحال تراجع الى الوراء وصرخ مذعوراً ٠ « قرقورته » كانت جثة هامدة ٠٠

لما عاد اليه رشده واقترب منها ثانية لمح بين طيات ثوبها ، فوق صدرها رسمه ورسمها في ثياب الاكليل ووجد بالقرب منها ورقة مطروحة عَلَى العشب كأنها حاولت ان تمزقها ولكن حال بينها وبين ذلك الموت ٠ فتح تلك الورقة بيد مرتجفة وهذا ما وجد فيها

« الى قرقوري الحبيب الذي لا يثمن !

في مثل هذا اليوم ربطنا الخوري بولس بوثاق الزيجة ٠ واليوم — بعد مضي احدى عشرة سنة — يفصلنا الموت ٠ فهل نلتقي بعد ؟ اذا صح ما يقولونه عن الحياة الآتية فسوف تجدني بانتظارك عَلَى عتبة العالم الثاني فاتحة ذراعيَّ لاستقبالك ومهيئة شفتيَّ لقبلتك ٠ وسوف تسمع سوءالي

مرة اخرى · « كيف حالك يا قرقور ؟ » · آه يا جميل — لو كنت الان بجانبي ! الان — وانا واقفة بحضرة الموت ! احب ان اشكرك عَلَى كل قبلة قبلتني اياها بحب وشوق · أود ان اشكرك عَلَى كل كلمة وكل حركة وكل لحظة حبَّبتَ بها الحياة اليَّ · مرَّت بي دقائق جعلتني انسى ان في العالم اوجاعاً واحزاناً · وتلك الدقائق كانت من هدايا حبك — فاشكرك عليها يا جميل ! حلمتُ احلاماً جعلتني اظن نفسي في السماء لا في الارض وتلك الاحلام كانت من نسمات حبك — فاشكرك عليها يا جميل ! ذقت طعم سعادة الفردوس · وتلك السعادة كانت من ثمرات حبك — فاشكرك عليها يا جميل ! اما انا فماذا قدمت لك عوضاً ؟ — قدمت لك قلباً ملأه حبك · قدمت لك روحاً اصبحت انت روحها · قدمت لك جسماً نقياً ، جميلاً ، طاهراً · وبالاجمال — كرَّست لك ذاتي · وما ذنبي اذا لم توازِ تقدمتي عطاياك ؟ انت لم ترضَ بي وحدي — لم تكتفِ بجميلة « مجردة » — وانا قبلت بك وحدك دون بقية العالم · انت كنت لي الكل بالكل · سعادتي تمت بك وبحبك · لكن سعادتك لم تتم بحبي · انت لم تظهر لي ذلك في اول الامر ولكن الايام كشفت لي ما كان مستوراً عن عينيَّ · كنتُ اظنك سعيداً بحبي كما كنت سعيدة الى النهاية بحبك فقط · وما أمرّ تلك الساعة التي ادركت فيها خطأي ! أتذكر حديثنا عن "العريس"؟ أتذكر لما سألتك اذا كانت سعادتك غير تامة بلا اولاد ؟ أتذكر جوابك لي ؟ حاولت مع ذلك ان اخدع نفسي · حاولت ان اقنع ذاتي ان محبتك

للاولاد كانت كمحبة بقية الرجال . وان حبك اياي سيبقى كما كان — سواء رزقنا الله « عريساً » ام لم يرزقنا . وما أمرّ الحقيقة التي كشفتها لي حوادث السنوات التي تلت ذلك !

لما تأكدت ان لا رجاء مني لالد لك اولاداً نبذتني من حياتك كالنواة . ولم تكتفِ بذلك بل ابغضتني و كرهتني كأنني سم افعى . بدأت بالتدخين ثم بالسكر ثم بشتمي وضربي . أتذكر لما ضربتني لاني رفضت ان اذهب الى الكنيسة لابسة كل حليّ ؟ آه . ما ألذ تلك الضربات من يدك ! قل لي بحقك — اما كانت تدخل الشفقة قلبك لما كنت تنظر اليّ اسير في البيت كشبح اصم اخرس . اراقب كيف تهبط بناية سعادتي امام عينيّ . وارى نفسي غريبة كيفما توجهت ؟ أنسيت اني لم ازل من لحم ودم مثلك واني لم افقد رقة شعور النساء ؟ هل قسيت بهذا المقدار حتى لم يبقَ في قلبك مكان للرقة علَى الاطلاق ؟ — آه . كم مرة وددت في تلك الدقائق لو نظرت الى اعماق نفسي ، كما كنت تنظر الى خفاياها سابقاً بعينيك الخارقتين ، ورأيت ما كان يجول فيها !

انت لا تعرف آلام الجرح في القلب . واول جرح في قلبي نلته من يدك كان ادراكي ان حبك لي — من الاول الى الاخر — لم يكن حباً لشخصي انا ، لم يكن حباً لي كأنسان مستقل بوجوده و كيانه في هذا العالم . انت احببتني كأم اولادك في المستقبل . احببتني كأنثى ستترك لك ذرية قبل ان تموت . ذاك عندك طبيعي . لكنه عندي أمر من الموت . لما كنت

افكر ان لا ثمن لي في عينيك بذاتي ، ان لا قيمة لجسمي وروحي بين يديك الا كآلة للتبذير ، كنت اطلب الموت لنفسي . انت لا تفهم ذلك . انت الى الان لا تدرك ان المرأة انسان ولها قيمة محصورة فيها ومستقلة عن اولادها لذلك لم احاول ان اقول لك عن ذاك شيئاً . انا وجدت فيك تتمة حياتي . لكن تتمة حياتك لم تنحصر فيّ فقط بل تعدتني — وهذا ما كان يؤلمني ويجرح قلبي . احببتك قبل الزيجة واحببتك بعدها ولا ازال احبك الان . لم ابغضك الا دقيقة واحدة فقط — لما رفعت يدك وضربتني مع اني اذكر ذاك الحادث الان براحة ولذة واشتهي لو كنت معي لتعيده

هل ظننت اني شاذة عن سنّة الطبيعة ؟ هل حسبت اني ، وانا امرأة ، ابغض الاولاد واعالة الاولاد ؟ آه . لو تدري كم ليلة حلمت ان طفلاً عَلَى ذراعيّ ! كنت اراه كذلك في اليقظة يمتص ثدي . اسمع دقات قلبه الصغير وارى يديه الصغيرتين تلعبان في الهواء . كم مرة رأيته يدرج امامي في الدار . كم مرة سمعته يناديني « ماما » . كم مرة جلست بقرب سريره الصغير وغنيت له لينام محدقة بوجهه الملائكي وعينيه السماويتين ! ... لكنك كنت اعمى عن كل ذلك . كيف لا تفهم اني لو رفضت اناضحي سعادتي ، وهي حقيقة كائنة ، لاجل اولاد لا يزالون في رحم المستقبل ، اي لاجل ما ليس كائناً ، لا اكون اعبر بذلك عن بغضي للاولاد ؟ ألا يقول المثل — عصفور في اليد ولا عشرة عَلَى الشجرة ؟ مع ذلك فقد سلمت نفسي لارادتك كعبدة . حرمتني لذة الشغل في البيت خوفاً من كلام الناس —

فرضبت . كرهتني لاني لم ألد لك « عريساً » — فحمّلت نفسي فوق طاقتها من زيارة الاطباء والقديسين والاديرة . انت لا تدري كم ذرفت من الدموع في خلواتي وابان سياحاتي . انت لا تدري كيف كان يقطر قلبي دماً لما كنت اراك تهرب مني وتميل نظرك عني كأني هواء اصفر ! امك وابوك كانا يشتهيان ان « يقذفني» عزرائيل عنك لعلك تقدر ان تأخذ لك امرأة « ولاّدة » . وها انا احذف نفسي من حياتك . فربما وجدت احسن واخصب مني . انا كنت متعلقة بوميض امل ضعيف ، كما يتعلق الغارق بقشة ، حملت المضض والألم والذل والاهانة وانا اقول « ربما » . عدت فولدت لك « عريساً » بعجيبة من السماء . كنت اظن اني اذا حصلت عَلَى ذلك استرجع خيال حبك السابق وسعادتنا الاولى . شدة رغبتي في ارضائك واسترجاع حبك حملتني عَلَى اقتراف ذنب لو غفرته انت لي فلا اغفره انا لنفسي . الموت عن قريب سيفصلنا — فلماذا اخاف ان اطلعك عليه؟

انا احمل الان في احشائي روحاً صغيرة وجسماً صغيراً — هو الجنين الذي اعاد الابتسامة الى وجهك والنور الى عينيك . لكنه ليس من لحمك ودمك ... ضحيت عزة نفسي وطهارة جسمي لاحصل عليه ارضاء لخاطرك . لكنني ادركت الان ان ما فعلته ذنب لا يغتفر . انا لا اريد ان اشتري حبك بالخداع والزنى ... لكني لما زنيت ، زنيت لاجلك فقط ... انا اشعر بحركات هذا الطفل التعس بين ضلوعي الان . لكنها ستهمد عن قريب . ستقف دقات قلبه الصغير لما تقف دقات قلب امه الزانية . من هو ابوه ؟

— وهل يهمك ان تعرف ذلك اوهل يخفف ذاك من ذنبي ؟ — يكفيك ان تعرف انه ليس ابنك فربما تُسر حينئذٍ انني اموت وأميته معي · ألا فاعلم يا جميل ان العاقر انت لا انا ، ولكن ، مع ذلك ، أنا مجرمة في نظرك ونظر العالم — ولا رغبة لي عَلَى الاطلاق ان ابرر نفسي امام محكمة العالم · هل قتلي نفسي جريمة كذلك ؟ أو لم أمت قبل الان ؟ ألم اكن ميتة كل هذه السنين التي تركتني فيها وحيدة غريبة كسيرة النفس والقلب ؟ ومن هو قاتلي — ألست انت ؟ الان لا مرد لما فات · جميل الذي احبته روحي اولاً راح ولن يرجع · فما غايتي بعد من الحياة ؟

لماذا اتكلم عن كل هذه الامور ؟ بعد دقيقة تجمد هذه اليد وتضمحل هذه الافكار وتسكت دقات هذا القلب الى الابد · ها الشمس تميل الى المغيب · وانا اشتهي ان تفارقني الحياة قبل ان يفارق النور اغصان السنديانة · في السنديانة فوق رأسي جوق من عصافير الحسون · ما ألذ تغريدهم ! ما اطرب خرير الساقية وحفيف اوراق السنديانة ! أتذكر لما كنا نأتي ونجلس هنا اول ما ادركنا معنى الحب ؟ آه · لو كنت بجانبي الان لاضمك ولو مرة بعد الى صدري قبل ان اودع هذا العالم ! هنا وُلدت محبتنا وهنا ادفنها معي · في يدي الان رسمنا في ثياب الاكليل · ما كان اجملك وألطفك يا جميل في ذاك النهار ! ما اجمل شاربيك وما اعمق سحر عينيك وما ألذ نضارة وجهك ! آه · لو تعود دقيقة واحدة ، بل لحظة ، من ذاك النهار ! آه · لو يعود جميل صباي ، جميل حبي جميل حياتي

وسعادتي !··· ما كان ألذ الحياة معك يا جميل ! اشكرك · اشكرك · اشكرك عَلَى كل قطرة من السعادة التي ارتشفتها من ينبوع حبك واطلب منك صفحاً عن كل اساءة صدرت مني نحوك ان كان بالقول او الفعل او الفكر · انا اموت واسمك بين شفتيّ ··· هل يمكنك ان تدفن هذه الصورة معي ؟··· احب ان انام نومتي الاخيرة مع رسم حبيبي جميل··· جميل الذي علقت به روحي من يوم ادركت معنى الحب ··· لا طلب لي اليك سوى ان تصفح عن كل هفواتي ··· ولا وصية لي عندك سوى امي ··· امي · امي ··· حبيبتي امي ! ترى ماذا تفعلين بعد انحجاب جميلتك عنك الى الابد ؟ !··

اذا ذرفتْ عَلَى تربتي دمعة واحدة فقط ··· دمعة واحدة ··· اكون ممتنة لك حتى بعد القيامة ··· وداعـاً يا قرقوري الحبيب !··· وداعاً يا قرقوري الذي لا يُثمن !··· قرقورتك

جميلة · »

··· ··· ···

اخبرني صاحب من ضيعة جميل الكرباج انه رآه حديثاً في نيويورك وسأله — هل تزوج ثانية ؟ فاجابه متنهداً وفي صوته غصة « لا جميلة بعد جميلة ·»